

هوبير فيدرين في حديث خاص لـ «مدارات غربية»

إذا لم تحدد أوروبا هويتها

فستعلن إفلاسها!

في رده على أحد أسئلتنا خلال مقابلة أجراها معه ناشر «مدارات غربية» د. محمد نعمة لم يكن السيد هوبير فيدرين (Hubert Védrine) وزير خارجية فرنسا الأسبق على كثير من التفاؤل حيال علاقة أوروبا بأميركا.

رأى فيدرين أنه «إذا لم يتمكن الأوروبيون من تحديد الشخصية الأوروبية بغير المبادئ الكونية المعروفة، كالديمقراطية وحقوق الإنسان، ومن دون أي تعريف للأسس التاريخية والجغرافية المخصصة، أي لهويتها فإن المشروع الأوروبي سيعلن إفلاسه وينحل»...

هنا نص الحديث:

«مدارات غربية»

«مدارات غربية»: لا يجسد النموذج الآسيوي، الصيني والياباني والكوري الجنوبي - على ما يُقال - حلاً كونياً، وذلك على الرغم من «إرادة العظمة» المؤكدة لديه. ويبدو أن العالم لم يعد يحلم بالنموذج الأميركي، على الرغم من قدرته التي لا توصف على التجديد. أما الحلم الأوروبي، فعلى الرغم من صلابته أسسه الثقافية والاقتصادية والديموغرافية، فإنه مهدد بالتلاشي، وينذر بخسارة البشرية نموذجاً فريداً وخالقاً، عابراً للأوطان. هل يقتصر النموذج الأوروبي على حيز للإنتاج والمردودية المتعددة الجنسيات، أم أن بإمكانه أن يجسد تقدماً أصيلاً في التبادل الحضاري وأمثلاً كونياً في التضامن؟

هوبير فيدرين: لنكن واقعيين؛ لا أعتقد أن بإمكاننا القول «العالم لم يعد يحلم بالنموذج الأميركي». لا شك في أن السياسة الأميركية الخارجية تلقى اعتراضات واسعة في العالم وانتقادات كثيرة، غير أن الإقبال على التأشيرة الأميركية، والتسجيل في الجامعات الأميركية يتزايد باستمرار. حتى أن

حوار أجراه في باريس:

د. محمد نعمة

نقله إلى العربية:

د. حسين قبيسي

الآسيويين استلهموا كثيراً «الحلم» الأميركي في بناء التقدم الذي بلغوه. «الحلم الأوروبي» يُعري، لكنه يشكو من بعض الغموض، كما أنه يشكو حالياً من نقص في الصدقية. وأخشى أن يكون العالم اليوم لا ينتظر من أوروبا أن تقدم له أكثر مما هي قادرة على تقديمه في المرحلة الراهنة من تاريخها. ولا بد أولاً من أن يصل الأوروبيين إلى اتفاق فيما بينهم على طريقة تنظيم أوروبا، وعلى ما ينبغي أن تكونه أوروبا وأن تفعله في العالم. وحيث العالم العربي يواجه متاعبه الخاصة وتحمل مسؤولياته، لا يمكنه أن ينتظر لتأتيه من أوروبا حلاً معجزة.

«مدارات غربية»: تحاول أوروبا أن تنشئ لنفسها فضاءً ممسوكاً وآمناً، لكنها تجهل حدودها الجغرافية. وهي تحدد لذاتها أفقاً ما بعد حداتي، يتخطى الدولة- الأمة وفكرتها ومثالها الأعلى ومصحتها وحدودها الثابتة.. لكنها في الوقت نفسه، تتراجع وتتنازع تجاه مطلب آخر «مختلف» على المستوى الديني (تركيا)، وتتجاهل مذابح المهاجرين على الأسلاك الشائكة عند «حدودها الإفريقية».. لماذا تشكل هذه المفارقات جزءاً من قاعدة الاتحاد الأوروبي نفسه؟

هوبير فيدرين: أعتقد بعض الأوروبيين أن بوسعهم أن يبنوا أوروبا على قاعدة تجاوز الدول / الأمم، أو حتى على نفيها. وهذا لا يمكن أن يحصل، لأن الشعوب لا تريده. ستبقى أوروبا كونفدرالية، أو بحسب قوله جاك ديلور، إعلان دول / أمم. نجتاز الآن مرحلة يعيش فيها الفرنسيون حالة من القلق الشديد على هويتهم، حتى أن كل خطوة توسيعية جديدة لأوروبا تصيبهم بالهلع والاضطراب.

ضرورة تعريف أوروبا

«مدارات غربية»: في حين يسيطر مبدأ الحراك والمرونة في أوروبا على العلاقة بين الداخل والخارج الوطني، وفي ما بين الحكومات الوطنية وداخل كل منها.. ألا يفرض هذا المبدأ نفسه أيضاً على الامتداد الجغرافي لأوروبا الموحدة؟ ألا يحيلنا توسع حدود أوروبا إلى ضرورة تعريف فكرة أوروبا بالذات؟

هوبير فيدرين: إذا لم يتمكن الأوروبيون من تحديد أوروبا إلا بمبادئ كونية كالديمقراطية وحقوق الإنسان.. مثلاً.

وهي مبادئ صارت مطروحة حتى الابتذال، أينما كان، من كندا إلى اليابان، من دون تحديد أي أسس تاريخية أو جغرافية مخصصة.

فإن المشروع الأوروبي سيعلن إفلاسه ويتلاشى.

«الحلم الأوروبي» يُعري،

لكنه يشكو من بعض

الغموض، كما أنه يشكو

حالياً من نقص في

الصدقية. وأخشى أن يكون

العالم اليوم لا ينتظر من

أوروبا أن تقدم له أكثر مما

هي قادرة على تقديمه في

المرحلة الراهنة من

تاريخها.

«مدارات غربية»: ألا تدل الـ «لا» في التصويت على الدستور الأوروبي، بنسخته الليبرالية، في فرنسا، ثم في هولندا، على استياء شعبي أوروبي ضد أوروبا المحكومة ببعدها الاقتصادي وحده؟ ألا يعكس هذا الفوز جموداً اجتماعياً لابل تراجعاً اجتماعياً وعلّة هذا التراجع؟ ثم أن هذا الجمود الداخلي ألم يكبح مسيرة أوروبا؟ وكيف يمكن أن تنجو من ذلك كله؟

هوبير فيدرين: إن الـ «لا» الفرنسية والهولندية هما في الواقع نتيجة أزمة كانت قائمة سلفاً. إن الدول الأوروبية، بعد أن أفلحت عبر عشرات السنين في ترسيخ أنظمة ضمانات اجتماعية شديدة التطور، تجد نفسها، أمام العولمة، في حالة الدفاع عن نفسها. فكيف يمكن لها أن تكيف أنظمتها هذه مع العولمة، بإنقاذ أهم ما فيها؟ المسألة الاجتماعية والضمانات الاجتماعية المختلفة هي إذاً مسألة في منتهى الأهمية، لكنها ليست المسألة المهمة الوحيدة؛ أيضاً مسألة هوية كل دولة/أمة؛ فما أكثر ما جرى تجاوز هذه الهوية وإهمالها، مراعاة لأسباب محض اقتصادية أو لأسباب تكنوقراطية أو أيديولوجية..

«مدارات غربية»: لقد أضعف الثنائي الفرنسي-الألماني، وهو محرك أوروبا، تمزق الطبقة السياسية الألمانية، وعجز الرئيس الفرنسي جاك شيراك وحكومته عن أخذ المبادرات على المستوى الأوروبي.. علاوة على ذلك، أدت الخلافات بين هذا الثنائي وبريطانيا التي تتولى حالياً رئاسة الاتحاد الأوروبي، إلى تعطيل سياسي وديبلوماسي فعلي لأوروبا.. هل تعتقدون أن أوروبا موحدة سياسياً ومدفوعة بروح المبادرة والمصممة على التحرك على المستوى الدولي قد تسمح بتهدئة بعض التوترات العالمية كتلك القائمة بين غرب يهيمن عليه التأثير الأميركي، وشرق في صيغته الإسلامية؟

هوبير فيدرين: يوحي سؤالك كما لو أن المشكلة محلولة أصلاً. بطبيعة الحال، يمكن لأوروبا إذا كانت موحدة سياسياً، أن تلعب دوراً مفيداً للعالم. ولكن كيف السبيل للوصول إلى هذا التوحيد؟ وحول أي تصور لأوروبا يتم هذا التوحيد؟ ثم كيف يمكن إقناع الشعوب الأوروبية بمثل هذا التصور فالصيغة الجيوسياسية والصيغة السياسية غير متطابقتين.

«مدارات غربية»: إذا خرجنا من دائرة الخطاب الممزوج بالشعور بالذنب، فإن التصادف بين سياق إقليمي ودولي متوتر ودرامي والعجز الأوروبي عن الفعل والاقتراح لهو شيء مؤسف. ما رأيكم في هذا الخصوص؟

هوبير فيدرين: صحيح. يا للأسف!

يمكن لأوروبا إذا كانت موحدة سياسياً، أن تلعب دوراً مفيداً للعالم. ولكن كيف السبيل للوصول إلى هذا التوحيد؟ وحول أي تصور لأوروبا يتم هذا التوحيد؟ ثم كيف يمكن إقناع الشعوب الأوروبية بمثل هذا التصور فالصيغة الجيوسياسية والصيغة السياسية غير متطابقتين.

خرافة البراءة

«مدارات غربية»: هل توافق على الفكرة القائلة بأن أوروبا موحدة ناتجة عن قرار سياسي موحد، هي ورقة رابحة بيد الولايات المتحدة، ولا سيما بعد ورطتها في العراق؟

لماذا لا تدرك واشنطن أهمية التأثير الإيجابي لقرار سياسي أوروبي موحد ومؤسساتي؟

هوبير فيدرين: لديك فكرة بريئة، لا بل في منتهى البراءة، عن أهداف السياسة الأميركية! لقد شجعت الولايات المتحدة الأميركية توحيد أوروبا في وجه الخطر السوفياتي، شريطة أن تحتفظ الولايات المتحدة بقيادة الاستراتيجية الأوروبية. منذ سقوط الاتحاد السوفياتي، تقلصت أهمية أوروبا في نظر الأميركيين، وبات توحيد أوروبا ينطوي، في نظرهم، على مساوئ أكثر مما يتضمن من فضائل.

مدارات غربية: ما هي في تصوركم الأسس التي تستند إليها أوروبا من أجل بناء تفاهم حضاري بينها وبين أميركا والعالم العربي؟

هوبير فيدرين: يا لهذه المهمة كم هي عسيرة وشاقة! ما زال بناء المنظمة الأممية مهمة تنتظر التنفيذ. ويتطلب ذلك إيجاد حل للصراع الإسرائيلي - الفلسطيني (ولأزمات أخرى شبيهة به، كأزمة كشمير وأزمة كوسوفو..) يكون مقبولاً لدى جميع الأفرقاء، واستئناف سياسة دؤوبة قائمة على حسن التفهم والتقارب، على مدى عشرات السنين على أن يتشكل قوامها من الحوار السياسي والثقافي والديني. كما يتطلب التربية والتدريب على التسامح والتعددية الخ.. على أن المسؤولية التي تقع على عاتق الأميركيين والأوروبيين والعرب ليست واحدة ولا هي نفسها، حتى وإن كان عليهم جميعاً أن يعملوا على طرد شبح مخاطر الصراعات والحروب.

منذ سقوط الاتحاد

السوفياتي، تقلصت أهمية أوروبا في نظر الأميركيين،

وبات توحيد أوروبا

ينطوي، في نظرهم، على

مساوئ أكثر مما يتضمن

من فضائل.